



المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم  
جامعة أمّ القري



# بحوث

## مُلَيْقِي الرَّسِيْبِيَا الْقُرْآنِيَا مَسَاهِجٌ وَتَجَارِيْبُ

لعام ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

التربية القرآنية في ضوء السيرة النبوية

إعداد

د. عبد الله بن وكيل الشيخ

www.msky.ws موقع سماء العقول

www.dawahmemo.com المفكرة الدعوية

المحور الثاني

# التربية القرآنية في ضوء السيرة النبوية

إعداد

د. عبد الله بن وكيل الشيخ

## بسم الله الرحمن الرحيم

### تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ القرآنَ الكريمَ مَنْهَلٌ لِلعِبَرِ، وسجّلٌ حافلٌ بالتربية؛ أينما وردته اعتبرت به، وأينما صدرت عنه تزوّدت منه. فهو كتابٌ تغييرٌ نحو الأفضل، وتهذيبٌ لِمَا شابَ النفوسَ من أدران، وتطهيرٌ لِمَا أصابَ الفِطْرَ من انتكاسات. وهو الكتاب الذي داخَلَ النفوسَ فكشفها، وفاتشها فأخرجَ خبيثها، وعالجها فاجتثَّ خبيثها. ولا غرو فهو كلامُ الله ﷻ؛ فيه آياتٌ للسائلين، وتذكُّرٌ للمرَبِّين، وتبصرةٌ للمؤمنين، ونذيرٌ للزائغين.

بين جنبات هذا الكتاب العظيم تَبَدَّتْ سيرةُ نبينا ﷺ وسيرةُ أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ساطعة كالشمس في رائعة النهار، ولكنها سيرةٌ ليست ككلِّ السِّيرِ، وقصٌّ ليس ككلِّ القصصِ، وعرضٌ للأحداث والوقائع ليس ككلِّ العرُض؛ حينما تشغل كتب التاريخ والسِّير بعدد الجُنُود، وجغرافيا المكان، وأسماء المقاتلة، وإحصاء المغانم؛ يحفل القرآن برسم العِبْرَةِ، وإيقاظ البصيرة، وترسيخ المعنى، وتعميم الدُّرس..

هذا، وقد جاءت ورقة "التربية القرآنية في ضوء السيرة النبوية" في مبحثين:

المبحث الأول: مقدمات مُهَيَّات. وفيه أربع مقدمات:

المقدمة الأولى: القرآن كتاب تربية وهداية وتركية.

المقدمة الثانية: أثر تنجيم القرآن في تثبيت معاني التربية.

المقدمة الثالثة: السيرة النبوية الوعاء الحيوي للتربية القرآنية.

المقدّمة الرابعة: تميّز المعالجة القرآنية للأحداث عن كتب السّير والتواريخ.

المبحث الثاني: التربية القرآنية في ضوء السيرة النبوية. وفيه مثالان:

المثال الأول: المعالجة القرآنية التربوية لحادث كامل من أحداث السيرة النبوية.

المثال الثاني: المعالجة القرآنية لمعنى تربوي قُرّر في مناسبات متعددة من أحداث السيرة.

## المبحث الأول

### مقدّمات مُمهّدة

#### المقدّمة الأولى

#### القرآن كتاب تربية وهداية وتركية

أبان القرآن الكريم في أكثر من موضع عن الغرض الرئيس، والغاية الأهم، من بعثة النبي ﷺ؛ وأنّ هذا الغرض وتلك الغاية من أعظم المَن التي يُمُنُّ اللهُ ﷻ بها على هذه الأمة الخاتمة؛ فقال عزّ من قائل: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي هذه الآيات الثلاث تقديم التزكية على التعليم، والتربية على التلقين، وهذه طبيعة التربة التي خُلِقَ منها الإنسان، لا تستقيم إلا بتحلية تتقدمها تحلية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وهذا ما يستقيم كذلك مع قانون المصلحة والمفسدة عند التعارض، من تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة. (١)

ولقد أبانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها عن سيرِّ هذا التقديم في قولها: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمَفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ؛ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْحَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْحَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّيْنَةَ أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ". (٢)

وهكذا تتجلى التزكية في أبهى آثارها؛ "تطهيراً للضمير والشعور، وتطهيراً للعمل والسلوك، وتطهيراً للحياة؛ تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الرِّبَا والسُّحْتِ إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة، ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها، وعن

(١) انظر: روح المعاني للألوسي، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية (٤١٧/١، ٣٢٦/٢).

(٢) صحيح البخاري، ترقيم عبد الباقي (٤٩٩٣).

نفسه، ونشأته؛ إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملائ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملائ العلوي الكريم". (١)

أمّا ما جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من تقديم التعليم على التزكية في دعائهما: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ففيه من الأجوبة؛ أنّ دلالة التزكية في المواضع الأولى التي تقدّمت فيها على التعليم، تختلف عن دلالتها في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي تأخّرت عنه؛ ففي الأولى يُراد بها التطهير، وفي الثاني يُراد بها الشهادة على أهم خيار أركياء، وذلك متأخّر عن تعليم الشرائع والعمل بها. (٢)

وقيل: بأنّ هذا التقديم بحسب ما تراءى لهما من أهميّة التعليم وشرف التحلية. (٣)

## المقدمة الثانية

### أثر تنجيم القرآن في تثبيت معاني التربية

قال ﷺ في تنزيل القرآن مُفَرَّقًا: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال عزّ من قائل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۗ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

(١) الظلال ط. الشروق - القاهرة (٦/٣٥٦٥)

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ط. دار الفكر ١٤٢٠ هـ (٢/٤٨)، روح المعاني (١/٤١٧).

(٣) انظر: روح المعاني (٢/٣٢٦).

ومن وجوه وحكم وأسرار تنجيم القرآن على الأحداث والوقائع، التدريج في تربية هذه الأمة الناشئة، علماً وعملاً. وينضوي تحت هذا الإجمال جملة من الأمور:

أولها: التمهيد لكمال تحليهم عن عقائدهم الباطلة، وعباداتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة؛ وذلك بأن يراضوا على هذا التخلي شيئاً فشيئاً، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً؛ فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل، انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا: يبدأ بالأهم ثم بالمهم، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها، فطهرهم منها، وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج، وطمعهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنة أو عادة. وكانت هذه سياسة رشيدة لا بد منها في تربية هذه الأمة المحيطة.

ثانيها: التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة؛ يمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة. ولهذا بدأ الإسلام بقطامهم عن الشرك، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد وحجج الحساب والمسؤولية والجزاء. ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات؛ فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة، وثنى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة، وختم بالحج في السنة السادسة منها. وكذلك كان الشأن في العادات؛ زجرهم عن الكبائر، وشدد النكير عليهم فيها، ثم تخاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدريج في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر، تدرجاً حكيماً، حقق الغاية، وأنقذهم من كابوسها في النهاية. وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجع سياسة؛ من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفضع إفلاس، وفشلت أمر فشل.

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب، وتهديب الجماعات، وتربية الأمم؟! بلى، والتاريخ على ذلك من الشاهدين.

**ثالثها:** تثبتت قلوب المؤمنين، وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين؛ بسبب ما كان يقصّه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة، والحين بعد الحين؛ من قصص الأنبياء والمرسلين، وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصالحين؛ من النصر، والأجر، والتأييد، والتمكين. والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العليّ

الكبير في سورة النور: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] (١).

وفي ذلك كمال التهيئة للأمة تصارع من حولها من أهل الديانات وأهل الوثنية؛ وفي كلٍّ منهم حرد على الحق، ولن يألوا جهداً في صد الحق وردّه، إن لم يقدرُوا على محوه ووأده.

ولقد أنتجت تلك التربية مسلماً رشيداً في هذه العصبة المؤمنة؛ فما وهنت في خطب، وما ضعفت في مهمّة؛ فحققت في أنفسها ثمار هذه التربية، فحقق لها في جولاتها النصر والظفر: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني ط. الحلبي (١/٥٥ - ٥٧).

## المقدمة الثالثة

### السيرة النبوية الوعاء الحيوي للتربية القرآنية

من المقدمتين السابقتين يتبين أن أحداث السيرة النبوية إحدى ميادين التدفق الحيوي للأحداث والوقائع التي تنزل آيات القرآن الكريم خلالها أو عقب انقضاء أحداثها في الغالب؛ لتعالجها وتُرِي من خلالها بضروب معاني التربية والمعالجة المتعددة. وقد حَفَلت الأحداث الكبرى في السيرة النبوية، نحو: (بدر، أحد، الأحزاب، تبوك ..) بآيات كثيرة تبلغ في بعضها العشرات من الآيات:

١. أما غزوة بدر (رمضان ٢هـ)، فقد ذكر الله ﷻ طرفاً منها في سياق غزوة أحد (شوال ٣هـ) في سورة آل عمران (الآيات: ١٢٣ - ١٢٧)<sup>(١)</sup>، وسورة الحج (الآية: ١٩)<sup>(٢)</sup>، وأشبعها حديثاً في سورة الأنفال التي كان يسميها عبد الله بن عباس بـ: (سورة بدر).<sup>(٣)</sup>

٢. وأما غزوة أحد، فـ: "قد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران؛ حيث افتتح القصة، بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آية".<sup>(٤)</sup>

---

(١) من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧]. وانظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي - باب قصة غزوة بدر، تفسير ابن كثير ط. طيبة ١٤٢٠هـ (١١٢/٢).

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا نَحْنُ أَنْخَصِمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ [الحج: ١٩]؛ فعن قيس بن عباد، قال: سمعت أبا ذر، يُقسِم قَسَمًا: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: "تَرَلَّتْ فِي الدَّيْنِ بَرُّوْا يَوْمَ بَدْرٍ، حَزْرَةَ، وَعَلِيَّ، وَعُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ، وَعُثْبَةَ، وَشَيْبَةَ ابْنَةَ رَيْبَعَةَ، وَالْوَلِيدُ بْنَ عُثْبَةَ". رواه البخاري (٣٩٦٩، ٤٧٤٣) ومسلم (٣٤) - (٣٠٣٣).

(٣) صحيح مسلم ترقيم عبد الباقي ٣١ - (٣٠٣١). وقد نزلت سورة الأنفال كاملة عقب غزوة بدر.

(٤) زاد المعاد ط. مؤسسة الرسالة (١٩٦٣).

٣. وغزوة الأحزاب (شوال ٥هـ)؛ ذكر الله أمرها، ووصف أطرافها ونهايتها، في الآيات (٢٧ - ٢٤) من سورة الأحزاب، ثم اختلفوا في الآيات (٦٢، ٦٤) من سورة النور<sup>(١)</sup>، والآية رقم (٢١٤) من سورة البقرة<sup>(٢)</sup>؛ هل نزلت في غزوة الأحزاب أو في غيرها.

٤. أما غزوة تبوك؛ فقد ذكرها الله ﷻ في سورة التوبة، ابتداءً من الآية (٣٨)<sup>(٣)</sup> إلى قبيل نهاية السورة التي عدد آياتها: (١٢٩) آية.

### المقدمة الرابعة

#### تمايز المعالجة القرآنية للأحداث عن كتب السير والتواريخ

لما كانت طبيعة القرآن تختلف جوهرياً عن طبيعة كتاب التاريخ، كانت معالجته للأحداث مختلفة كذلك عن معالجة كتب السير والتواريخ. ولعل من أبرز جوانب الفرق في هذا المجال:

١. انفراد القرآن الكريم بتقييم الأحداث والوقائع والحكم عليها واستخراج

(١) وهي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا مِنِّي إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنكُمْ لِيُذَاقُوا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَقِظُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٢ - ٦٤].

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَذُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣١٤﴾﴾

(٣) قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْضَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَلْتُمْ...﴾ [التوبة: ٣٨].

العبر والدلالات التربوية، وعلى سبيل المثال؛ فإنّ ما ورد في القرآن الكريم عن "حديث الإفك" في "سورة النور" قد امتاز إلى جانب الوصف والتسجيل، بالحكم والتقييم؛ حيث قرر القرآن منذ البداية أنّ ما قيل وما يقال حول هذه الحادثة إنّما هو إفك وافتراء خرج به جماعة من المنافقين والمرجفين في المدينة الذين يريدون بالرسول ﷺ وبال دعوة كلّها شرّاً. ومن ذلك أيضاً ما وقع للمسلمين في يومٍ أحد (شوال ٣هـ) وحنين (٨هـ)، وما يقابل ذلك ممّا وقع في يوم بدر (رمضان ٢هـ)؛ ففي اليومين التاليين لبدر؛ وأولهما يوم أحد وفيه من النكوص عن طاعة النبي ﷺ، واستدبار أمره، واستقبال الغنائم قبل وجوبها، وفي يوم حنين وما وقع فيه من الإعجاب والاعتزاز بالكثرة. بخلاف هذا وذاك، فهذا يوم بدر؛ يوم أن كان المسلمون في العدد قلّة، ولكن كان كل واحد منهم في نفسه أمة، يؤثر معاني الآخرة على معاني الغنيمة الحاضرة. والقرآن الكريم يُسجّل هذه المعاني ويبرز دلالاتها تسجيل العليم الحكيم، ويُعالجها معالجة المرّيّ الخبير بما عليه عباده من الحاجة إلى التهذيب والتربية والتذكير والتعليم. وفي سياق واحد يُسجّل الله ﷻ لأهل أحد أسباب نصر المسلمين في بدر، وبُطْفٍ دلاليّ يلقي في روعهم موجبات الهزيمة ليحذروها، فقال عزّ من قائل في (الآيات ١٢٣ - ١٢٦) من سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ۝١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ تَصَبُّرًا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَنَّ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١٢٦﴾. ففي هذه الآيات

الكريمات تقرير لما كان عليه المسلمون يوم بدر من الذلّة "بقلة العدد وقلة السلاح"<sup>(١)</sup>، ولكنهم كانوا أعزّة مُشْرِين بأسباب النصر، من الصبر والتقوى والطاعة؛ فقبل لأهل أُحد: إن تصبروا كما صبروا، وتتقوا كما اتقوا، لأمدكم الله وَعَلَىٰ بَدْرٍ مِنْ عنده، ولكنهم لم يُحَقِّقوا هذه الشروط، فتخلف عنهم المدد، واستدبرهم النصر. أما يوم حنين؛ فهو تسجيل تربويّ، وتقييم للحالة التي كان عليها المسلمون: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]. وهذا المشهد ليس تسجيلاً ظاهريّاً للحدث، وإنما هو تسجيل من خبيرٍ لما كانت عليه النفوس من إعجاب واغترار بالكثرة، وفي ذلك تقييم تربويّ لمعايير وأسباب النصر والهزيمة، وأنّ النصر ليس بالكثرة الظاهرة التي لا تلبث أن تنقشع عند الخطوب المزلزلة، وإنما النصر حالة تنشأ ابتداءً في دواخل النفس المؤمنة، وبذرة تمتد في أعماقها، حتى إذا حان الحين؛ تفجرت ينايع النصر، وتدفقت ورزّلت. وهكذا يكون الدرس وتسجيل القيمة.

وفي الجملة؛ ففي كل معركة من معارك الإسلام - بدر، أحد، إجلاء بني النضير، الأحزاب، صلح الحديبية، حنين، تبوك ... - عبرة، ولعل من أهمّ عبرة بدر أنّ الحقّ سبحانه يجعل النصر لمن يستحقّه، ولو كان بعيد المقاربة من عوامل النصر المادية عددًا وعدة، وخاصة إذا كانت العصبية المؤمنة مقدّمة أهل الإسلام، التي جعلها الله

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت ١٤١٥ هـ (ص ٢٣٠).

حاملة أمانة التبليغ والداعية لدينه، كما يُعبر عن ذلك قول المصطفى ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنَّ  
تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ". (١)

وأعظم عبرة في قصة أحد أن الإخلال بطاعة القيادة قد يقرب المعركة رأساً  
على عقب، فيعود النصر هزيمة، ولا تشفع حينئذ التقديرات الفردية، ولو كانت بحسن  
نية؛ فأمر الأمة والدولة لا يستقيم إن لم يكن فيها رأي مطاع، وقائد تستجيب الجموع  
لأمره. ومن عبر حادثة الأحزاب، أنه متى تكالب الأعداء على الأمة وقد أخذت  
كامل أهبته، ولكن موازين النصر المعهودة بعيدة جد بعيدة؛ فإن الله جنوداً يحققون  
نصره لعباده بما لا يحتسبون، وعبر أخرى يأتي الحديث عنها إن شاء الله، وهكذا في  
بقيّة أحداث السيرة.

٢. الانتقال بالحدث من الخصوص إلى العموم؛ فالحدث الذي ترويه كتب  
السيرة يبقى مجرد حدث مرتبط بزمانه ومكانه وأشخاصه، لكنه عندما يُروى في القرآن  
الكريم يتحوّل إلى درس يتجاوز ظروف الحدث مكاناً وزماناً وأشخاصاً إلى حيث  
يصبح قضية عامّة، ومبدأً يعامل به كل المسلمين في كل زمان ومكان متى تشابهت  
ظروفهم وظروف هذا الحدث الخاص؛ ومن ذلك "حديث الإفك" الذي انتقل به  
القرآن الكريم من الوقوف أمامه كحدث بعينه في ظروف خاصّة، إلى اعتباره قضية  
من قضايا صيانة عرض المسلم، ووجوب توفير الحماية له، واعتبار إشاعة الفاحشة في  
مجتمع المسلمين أو التّيل من أعراض المحصنات الغافلات بغير دليل يقيني - هو أربعة  
شهود عدول - من الأمور الخطيرة عند الله التي يجب اعتبار فاعلها من المفسدين في  
المجتمع الإسلام الذي تجب حمايته منهم في الدنيا بالحدّ، وفي الآخرة بالوعيد الشديد،

---

(١) صحيح مسلم (١٧٦٣).

على نحو ما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنِّتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحناك هذا بهتتن عظيم (١٦) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين (١٧) وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨) إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١٩) ﴿ [النور: ١٥ - ١٩]. إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفى لهم الله دينهم ألقاها ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴿ [النور: ٢٢ - ٢٥]. فهذا التفصيل الدقيق المقرون بالتقييم والتوجيه، وتحديد التبعات والعلاقات بين الناس في مجتمع الإسلام، يجاوز فيه النص القرآني بالحدث ما وقفت عنده كتب السيرة ليصبح الحدث في ذاته مجرد مثل أو نموذج يحدد القرآن سماته ويضع له حدوده وأحكامه.

ومن الأمثلة كذلك على انتقال القرآن الكريم بالحدث من الخصوص إلى العموم؛ ما قصه الله ﷻ علينا من واقعة المجادلة التي جاءت تشتكي زوجها؛ فانتقل بها النص القرآني من بُعد الحدث الخاص إلى قضية تشريعية عامة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ

وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ  
يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكُمْ  
تَوْعُظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ  
قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ۗ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [المجادلة: ١ - ٤] .

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ  
وَجْهَهُ ۗ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ  
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]؛ الذي انتقل به القرآني من  
السياق الخاص في بعض نفي علم النبي ﷺ إيمانهم، فهمم بالانصراف عنهم رغبة في  
دعوة بعض الكبراء إلى الإسلام الذين أشاروا بطردهم؛ إلى السياق العام في كل من  
كانوا على شاكلتهم، في سياق عام لا تحده أسماء ولا يضيق به زمان دون زمان. (١)  
٣. امتياز العرض القرآني بالأسلوب والبيان المعجز الذي تكتسب الكلمات  
والجمل فيه حيوية دفاقة؛ تجسم الحدث وتحيطه بالإيحاءات والظلال، وتنقل القارئ  
والمستمع إلى جوهه كأنما يعيش أو يشارك فيه، وذلك ما لم يتوقر ولن يتوقر لأي من  
كتب السيرة في القديم والحديث. ومن الأمثلة على ذلك تصوير ما كان عليه المسلمون  
يوم بدر (رمضان ٥٢هـ): ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ

(١) راجع: صحيح مسلم ٤٦ - (٢٤١٣).

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ  
قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ \* إِذْ يُعَسِّيكُمْ  
الْغُصَّاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ  
رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ \* إِذْ يُوحِي رَبُّكَ  
إِلَى الْمَلَائِكَةِ أِنِّي مَعَكُمْ فَيُبَيِّنُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿الأنفال: ٩ - ١٢﴾. وما كان عليه المسلمون كذلك يوم الأحزاب (شوال ٥هـ): ﴿إِذْ جَاءُوكُم  
مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ  
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾  
[الأحزاب: ١٠، ١١]. ومن ذلك التصوير القرآني لبعض أحداث غزوة تبوك (رجب  
٥هـ): ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
أَقَاتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُم  
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿التوبة: ٣٨، ٣٩﴾، ومنه تصوير توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه  
الغزوة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [التوبة: ١١٨].

٤. انفراد القرآن الكريم بالنفاذ إلى البواطن والضمائر، واستخراج ما تكنه من خفيات؛ فلا إن وقف كتب السِّير والتواريخ عند تسجيل الأحداث والتصرفات الظاهرة للعيان؛ فإنَّ القرآن الكريم بما له من صفة الإلهية؛ ينفذ إلى الأعماق والنفوس، ويستخرج الكامن منها؛ من ذلك قول الله ﷻ لِنَبِيِّ ﷻ في سياق تحريم التبي: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ...﴾ [الآية [الأحزاب: ٣٧]]. وكما في حديث القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن المنافقين وكشف حقيقة مواقفهم مع النبي ﷺ والمؤمنين؛ من ذلك تعدُّهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب بأنَّ بيوتهم عورة، فقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. ولقد كشف القرآن الكريم ما عليه المنافقون من الحذر أن يُنزل الله ﷻ على المؤمنين سورة تفضحهم وتعري دواخلهم وتكشف ما تضره قلوبهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]. قال مجاهد: "يَقُولُونَ الْقَوْلَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يَفْشِيَ عَلَيْنَا هَذَا". وعن قتادة، قال: "كانت هذه السُّورة تسمى: الفاضحة، فاضحة المنافقين، وكان يقال لها: المثيرة؛ لأنها أنبأت بمثالبهم وعوراتهم".<sup>(١)</sup>

(١) تفسير ابن أبي حاتم ط. مكتبة نزار ١٤١٩ هـ (٦/١٨٢٩)، الدر المنثور ط. دار الفكر (٤/٢٢٩). وانظر: السيرة النبوية في القرآن الكريم، د. عبد الصبور مرزوق، ط. الهيئة العامة المصرية للكتاب (ص ١٨-٢٠، ٢٨-٣١).

## المبحث الثاني

### التربية القرآنية في ضوء السيرة النبوية

هذا المبحث يُقدِّم نموذجًا لمعالجة القرآن الإيمانية التربوية من خلال تناول السيرة النبوية، وقد آثرنا أن يكون النموذج مصنوعًا من مثالين:  
الأول: حدث كامل من أحداث السيرة النبوية، وكيف عالج القرآن وتبّت فيه معالم التربية الإيمانية.

الثاني: أخلاق قرّرها القرآن في أكثر من مناسبة وهو يعالج حدثًا من الأحداث أو واقعة من الوقائع في زمن النبوة.

### المثال الأول

#### المعالجة القرآنية التربوية لحدث كامل من أحداث السيرة النبوية (غزوة الأحزاب)

الآيات التي تحدثت عن غزوة الأحزاب معظمها في سورة الأحزاب؛ حيث بلغت آيات الغزوة في هذه السورة تسعًا وعشرين آية، من الآية التاسعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ [الأحزاب: ٩] إلى الآية السابعة والعشرين: ﴿وَأَوْزَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وِدْيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٧].

جريًا على سنن القرآن في معالجة أحداث السيرة؛ حيث لا يحتفل بذكر التفاصيل، ودقائق مجريات الأحداث، وإنما يعمد لمعالجة الحدث من خلال أبعاده الإيمانية،

ومناحيه الأخلاقية، وخلجات النفس البشرية وهي تتقلب في صروف الحدث؛ فتتنازعها المشاعر المتعددة، والحسابات الكثيرة، والعلاقات المتشابكة، والآمال المقبلة؛ فيعود الحدث بهذه المعالجة القرآنية مدرسة تتعلم منها الأجيال، لا كتاب تاريخ يلتدّ بقراءته المؤرخون والمثقفون والهواة.

ينتقل الحدث في السياق القرآني من ظرفه التاريخي، وواقعه الجغرافي، إلى منارات تسوق النفس البشرية إلى دروب الرشاد، ومواطن الحق؛ خاصة وأنّ الأحداث في ساحة التاريخ تتشابه، والشخص تتجانس، والغايات تكاد تكون صورة مُنْتَسَخَة من بعضها، فكأنّ حدث اليوم هو ذلك الحدث الواقع بالأمس.

غزوة الأحزاب كانت في (شوال ٥هـ)، وغزوة أحد كانت في (شوال ٣هـ)؛ فبينهما عامان على التمام والكمال؛ أصاب المسلمين في أحد ما أصابهم مما هو معلوم؛ فقتل من خيارهم من قتل، وظهرت الشّماتة من أعدائهم جرّاء ما نالوا من أهل الإيمان. وبين أحد والأحزاب مرارات ذاقها المؤمنون؛ ففي أواخر سنة ثلاث - أو أربع على خلاف بين كُتّاب السيرة - قدم على النبي ﷺ قومٌ من عَصَلٍ والقارة المضريّين، وذكروا أنّ فيهم إسلامًا، وسألوه أن يبعث معهم من يُعلّمهم الدّين، ويُقرّهم القرآن؛ فبعث معهم نفرًا من أصحابه لا يتجاوزن العشرة، فمكروا بهم وقتلوهم وقتلوا آخريهم - حُبَيْبَ وَزَيْدَ بنِ الدُّثَنَةَ - صبرًا بمكة<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ط. مكتبة الحلبي (١٦٩/٢ - وما بعدها)، الروض الأنف، ت: عبد الرحمن الوكيل (١٨٣/٦) - وما بعدها).

وفي شهر صفر من السنة الرابعة كانت وقعة (بئر مَعُونَة)<sup>(١)</sup> التي تعرف بـ: (سريّة القُرَاء) وكانت مع بني رِغْلٍ وَذُكْوَانَ<sup>(٢)</sup> قَبْلَ نَجْدٍ، ذهب ضحيتها سبعون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ في قصةٍ غديرٍ أخرى كان رأسها المدبّرُ أبا براء عامر بن مالك، ملاعب الأسنّة. إِنَّهُ لَكَلَّمَ عَلَى كَلْمٍ، وَوَجَعَ عَلَى وَجَعٍ، وَجَرَحَ عَلَى جَرَحٍ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ أَشَدَّ مَا تَكُونُ حَاجَةً لِمَنْ يَأْسُوا جِرَاحَهَا، وَيُسْرِي عَنْهَا مَا أَلَمَّ بِهَا، وَيُدَكِّرُهَا بِسُنَّةِ اللَّهِ فِي تَدَافِعِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمَنْ يَدْرِي فَلَعَلَّ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَيَّامِ كَرِيهَةٌ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وهذه الآية تضع المسلم بين حقيقتين؛ حقيقة أنّ درب الحق محفوف بالمكاره، مفروش بالأشواك، مليء بأهل الأهواء والضلالات الذين يقدمون في سبيل الله ضلالاتهم الكثير والكثير من النفس والمال والجهد، وحقيقة أنّ نصر الله قريب من أهل الإيمان متى استمسكوا بدينهم، وذادوا عن عقيدتهم، وعمرت قلوبهم بيقين النصر من ربه؛ أمّا الحقيقة الأولى فترتّب على الصبر، والحقيقة الثانية ترتّب على اليقين؛ فالصبر يهون مرارة الحاضر، واليقين يعدّ بحلاوة المستقبل، وبينهما سير المؤمن بكل عزة وثبات.

(١) (بئر معونة): قال ابن إسحاق: بئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم. معجم البلدان لياقوت (١/٣٠٢).  
(٢) انظر: مغازي الواقدي ت: مارسدن جونس ١٤٠٩هـ (١/٣٤٦)، فتح الباري (٧/٣٧٩ - ٣٨٠)، المواهب اللدنية للقسطلاني (١/٢٦٠)، تاريخ الخميس (١/٤٥٤، ٤٧٥ - ٤٧٦).

على أن هاتين الحقيقتين ليستا حالة خاصة يخاطب بها محمد ﷺ وصحبه، ولكنها سنة الله في عباده المرسلين وأتباعهم من المؤمنين، وذلك ينفي الإحساس بوحشة التفرد، ويوجد الأُنس بالانخراط في قافلة أهل الإيمان على مدار التاريخ، ويزيده اطمئناناً بحصول الموعود.

ولقد كان لهذه الآية أثرها العظيم في ثبات أهل الإيمان في كرب الأحزاب، واطمئنانهم إلى نصر الله في ساعة الحرج والضيق - كما سيأتي إن شاء الله - .  
أما آيات سورة الأحزاب؛ فترسم حدث الأحزاب في مقاطع حافلة بالتوجيهات الإيمانية، والمعاني التربوية، أكثر من اشتغالها على إحصاء جامد للأحداث، أو تفصيلات للوقائع لا يتسع لها المقام القرآني..

### المقطع الأول :

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿ [الأحزاب ٩ - ١١].

تحمل هذه الآيات أمر الغزوة من أولها إلى آخرها؛ لتكثف فيها معنى الرعاية والحفظ من الله للجماعة المؤمنة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

فإنَّه يسبغ نعمته عليهم بعد أن تحزَّب عليهم النَّاسُ؛ فيفكَّ عنهم هذا الحصار،  
ويزيل عنهم هذا الكرب بسببٍ من عنده؛ فيرسل رِيحًا عاتية<sup>(١)</sup>؛ لا تدع قِدْرًا إلا كفأته،  
ولا خيمة إلا اقتلعتها، وهي تحمل البرد القارس، مع عتوِّ في حركتها، وصغيرٍ في هبوبها  
يولِّد الفزع، ويُدْكي الخوف، ويَزْرِعُ الرهبة<sup>(٢)</sup>.

وهناك جنود الرحمة من الملائكة؛ يزرعون في نفوس هذه الأعداء الخوف والرعب  
والهلع والفزع، مع أنهم أكثر عددًا وأوفر عددًا؛ فهم عشرة آلاف، ومحمد ﷺ وصحبه  
رضي الله عنهم لا يجاوزون ثلاثة آلاف<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان معنى الالتجاء إلى الله ، والتوكُّل عليه، والثقة به ؛ مراد تقريره في  
النفوس من خلال هذا السياق القرآني؛ فإنَّ الله لم يهمل ذكر العمل، والمعاناة التي  
عاناها رسول الله ﷺ وصحبه ؛ حيث عملوا ما يستطيعون ، وكافحوا غاية ما  
يقدرُونَ، واحتالوا على العدو بكل ما يعرفون من أنواع الكيد والتخطيط ؛ فهم قد  
دبَّروا مكيدة الخندق عندما سمعوا بتوجُّه تلك الجموع إليهم، فحفروا خندقًا بعمقٍ  
"يصعب على العدو أن يخرج منه لو هبطه ، واتَّساع يصعب على خيل المشركين

---

(١) عن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ غَاذٌ بِالدُّبُورِ». صحيح البخاري (١٠٣٥، ٣٢٠٥،  
٣٣٤٣، ٤١٠٥)، صحيح مسلم ١٧ - (٩٠٠).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ت: عبد المعطي قلنجي ١٤٠٥هـ (٤٤٨/٣)، سبل الهدى والرشاد للصالحي، ت: عادل  
عبد الموجود، علي معوض (٣٨٦/٤ - ٣٨٧)، الدر المنثور للسيوطي (٥٧٣/٦).

(٣) سيرة ابن إسحاق (ابن هشام ٢١٩/٢ - ٢٢٠)، مغازي الواقدي (٤٤٤/٢)، الطبقات الكبير لابن سعد ط. دار  
صادر (٦٦/٢). وقيل: كان المشركون أربعة آلاف، والمسلمون نحو الألف. حكاه ابن حجر في فتح الباري ط. دار  
المعرفة - بيروت (٣٩٣/٧).

قفزه" (١)، جعلوه بينهم وبين أعدائهم فيما سهل من الأرض، وأسندوا ظهورهم إلى جبل سَلْع، وحرسوا منطقة القتال ليلاً ونهاراً كلما رأوا من الأعداء محاولة للاقتحام صدُّوهم ورشقوهم بالنبل على مدى خمس وعشرين ليلة.

هذه الأعمال لم تذهب سدى، بل هي ببصر الله وعلمه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. كل ذلك ليجمع المؤمن بين الثقة بربه، وبذل غاية ما يستطيعه من العمل؛ فالثقة بالعمل غرور، وترك العمل غفلة، ولن ينصر الله مغروراً ولا غافلاً.

ثم ترسم الآية الثانية والثالثة الجو العام لأمر الغزوة: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. وهو جو الهول الفظيع الذي يرتسم في صور ثلاث؛ واقع العدو المادي، وصورة أثره على ظاهر البدن، وصورة أثره على باطن النفس.

أما الواقع المادي، فتلك الجموع التي يقودها أبو سفيان بن حرب ومعه قريش ومن تبعه من بني كنانة وأهل تَهَامَة والأحباش، وعُيَيْنة بن حصن ومعه غطفان،

---

(١) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ط. دار مَكَّة - مكة المكرمة ١٤٠٢ هـ (ص ١١٤). وفي تقدير طول وعرض وعمق الخندق خلاف؛ فقيل: إنَّ طوله: (٥,٠٠٠) ذراع، وعرضه (٩) أذرع، وعمقه من (٧) أذرع إلى (١٠). انظر: السيرة النبوية للندوي دار ابن كثير - دمشق، ١٤٢٥ هـ (ص ٣٤٨)، السيرة النبوية الصحيحة للعمري ط. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ١٤١٥ هـ (٢/٤٢١). وقيل: طوله: (٥٥٤٤م)، متوسط عرضه: (٤,٦٢م)، متوسط عمقه: (٣,٢٣٤م). أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ط. دار الفكر المعاصر - بيروت، ١٤٢٣ هـ (ص ١٣٧). وقيل: طوله (٢٧٢٥م) بشكل قوس منفرج؛ من نهاية الحزة الشرقية عند أجمة الشيخين شرقي ما يُعرَف به الآن بمسجد المستراح حتى ثنية حزة بني سلمة إلى الشرق من القبلتين. الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين لعماد غالي الشنقيطي، عني بطبعه ومراجعته عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (ص ٢٠٢ - ٢٠٤).

والحارث بن عوف ومعه بنو مُرّة، ومِسْعَر بن رُحَيْلَة ومعه أشجع، وإن شئتَ قُلْتَ جزيرة العرب كلها نُجِّدَها وتَهَامَتَها - إلا اليمن - قد تكالبت فرمت جماعة المؤمنين عن قوس واحدة بعد أن أفلحت دعاية اليهود ومكرهم في جمعهم لحرب المؤمنين - وتلك ثمرة مُرّة لدهاء بني النضير الذين أجلوا إلى خير فزيتوا لقبائل العرب هذه الفعلة الشنيعة -، وهؤلاء هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠].

ولكنَّ هناك أقوام أقل عدداً، ولكنهم أشرس وأعظم أثراً، إنهم أعداء الداخل، وهم طائفتان؛ طائفة المنافقين وطائفة اليهود المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠].<sup>(١)</sup>

وإنما نقول إن هاتين الطائفتين أشرس وأخبث، وأشدّ وأنكى؛ لأننا نجد أن قبائل العرب أُجِلمَ ذكروهم في آية واحدة بل بعض آية، وفصل الله ذِكرَ المنافقين واليهود في أحد عشر آية.

كل ذلك لتتعلم أن أعداءنا الخارجيين لن ينالوا منا غاية ما يبتغون إلا في حال تفكك جبهتنا الداخلية بمن نثق بهم وليسوا أهلاً للثقة، أو نحسن الظنّ بهم وهم لا يستحقون، أو نعاهدهم ولا يفون؛ فليكن الحذر من هؤلاء مثل الحذر من الأعداء الخارجيين إن لم يكن أشدّ وأكثر.

(١) هذا أحد القولين في تفسير الآية، وفي سيرة ابن إسحاق (ابن هشام ٢/٢٤٦) - ومن طريقه ابن جرير في تفسيره ط. دار هجر (٣٤/١٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٣٦/٣) من طريقين أحدهما طريق ابن إسحاق - وكذلك في مغازي الواقدي (٤٩٤/٢) أن الذين جاؤوا من فوق، هم: بنو قريظة، والذين من أسفل: قريش وغطفان. انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢١٥، ٢٤٥)، مغازي الواقدي (٤٩٤/٢)، دلائل النبوة (٤٣٦/٣)، جوامع السيرة لابن حزم ت: إحسان عباس (ص ١٨٦)، البداية والنهاية ط. دار هجر (٣٤/٦)، تفسير ابن كثير (٣٨٨/٦).

والصورة الثانية هول ذلك الموقف في رسم آثاره على النفوس في الجوارح  
الظاهرة والباطنة:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ  
الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠].

إنها صورة المفزوع الممتلئ خوفاً ورعباً من أعدائه، ذاك غاية ما يكون من الكرب؛  
فلا العين سكنت من تتابع لحظها، ولا القلب سكن من خفقانه؛ بل كاد يطير فرحاً  
إلى الخنجره يلتمس المخرج.

في تحقُّق الصور الثلاث؛ كانت البلوى للمؤمنين، ووقع الزلزال عليهم، قال محمد  
بن مسلمة: "كان ليلنا بالخنديق نحاراً، وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان  
بن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص  
يوماً، ويغدو هُبَيْرَةُ بن أبي وهب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار  
بن الخطاب يوماً؛ حتى عظم البلاء، وخاف الناس خوفاً شديداً".

نعم، لم تقع معركة يتصاول الجيشان فيها القتال، وإن كانت هناك محاولات  
مستميتة لاقتحام ذلك الخندق الذي أصبح حجر عثرة بين قريش وأتباعها وما تريد،  
حتى إنهم في جملة من الأيام شغلوا رسول الله ﷺ عن الصلوات؛ أياماً صلاة، وأياماً  
أكثر من صلاة؛ الظهر والعصر والمغرب، حتى صُلِّيَت صلاة النهار في الليل، فقال  
ﷺ حينئذٍ: "شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ أَجْوَابَهُمْ،  
وَقَبُورَهُمْ نَارًا" (١).

وإن تعجب فاعجب من هذه اللغة القرآنية الآسرة حين تصف هذا المشهد  
بالابتلاء، والابتلاء عادة ما يكون وسيلة لغاية. ولقد كان هذا الحدث في غاية النفع

(١) رواه البخاري (٤١١١)، ومسلم ٢٠٦ - (٦٢٨) واللفظ لمسلم.

لأهل الإيمان؛ فكان ابتلاء حسنت ثمرته، وزكى زرعه. كان ابتلاء كشف أهل النفاق، وفضح اليهود الخونة، وزد قريشاً والأعراب المعتدية؛ فلم يعودوا لحرب محمد ﷺ إلا لمأماً، بل كانت هذه الغزوة بداية الدائرة عليهم. ولذا فإن من أعظم ما يتعلمه المؤمن أن يُصير الحكم الإلهية، واللطف الرباني؛ فيما يسوقه الله من الأحداث، ولا يقف عند ظواهر الأشياء، وإنما يستكنه أسرارها، ويستنبط حكمها، ويستثمر فوائدها.

### المقطع الثاني :

وخصّص للحديث عن أهل النفاق، وقد كان حديثاً عن أفعالهم، لكنّه في الوقت نفسه كان حديثاً عن مكنونات نفوسهم، ورؤاهم في المستقبل في مشاهد متتابعة.

المشهد الأول؛ كان رسول الله ﷺ وأصحابه يحفرون الخندق، فاعترضتهم صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأخذ النبي ﷺ المغول، فقال: "بسم الله"، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا"، ثم قال: "بسم الله"، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا"، ثم قال: "بسم الله"، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا".<sup>(١)</sup>

(١) رواه أحمد ط. الرسالة (١٨٦٩٣) من طريق ميمون أبي عبد الله، عن البراء بن عازب ؓ، به. قال الهيثمي في مجمع الروائد ط. مكتبة القدسي (١٣١/٦): "رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات". وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣٩٧/٧). وأصله في صحيح البخاري (٤١٠١) من حديث جابر ؓ، قال: "إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كَذِبَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كَذِبَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: "أَنَا نَارِلٌ"، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَغْضُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَيْسْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِغْوَلَ فَضْرَبَ، فَعَادَ كَيْبًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهْيَمَ...".

كانت هذه الحادثة عند أهل النفاق مصدرًا للتندُّر وبث الوهن في نفوس المؤمنين؛ كيف يَعِدُ مُحَمَّدٌ ﷺ هذه المواعيد، ونحن في حالة محصورة، لا يستطيع الواحد منا أن يعود إلى أهله ليقضي حاجته إلا بعد أن يستأذن، فما هذه إلا مواعيد غرور، لا تستقيم على سُنَّةِ العقل، ولا تقبلها التجارب البشرية؟! ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

المشهد الثاني؛ أقوام من أهل النفاق يهمسون أحيانًا، ويرفعون أصواتهم أحيانًا، يزعمون النصيحة، ويتدثرون بالشفقة، ويتزيَّون بالمعرفة؛ يدعون النفاذ إلى بواطن الأحوال، واستشراف المآلات؛ وقد كذبوا والله في جميع ذلك، كما كذبوا في قولهم الصَّادِر من جنهم وخورهم، وظلمة قلوبهم وعقولهم: يا أهل المدينة! ليس بهذا المقام بمقام لكم، فلندعوه؛ إذ لا طائل فيه، ولا ثمرة له، ولترجعوا إلى منازلكم ودياركم؛ تسلموا ممن أنتم واردون عليه من القتل، وهلاك النفوس والديار.

وإذا كانوا هم يدعون إلى ذلك بأقوالهم، فهم يمارسونه بأفعالهم؛ بكثرة الاستئذان، واختلاق المعاذير، تحلُّلاً من المشاركة الفاعلة في حفر الخندق: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. فالآية كما تكشف عن أفعالهم، فهي تكشف عن دواخلهم؛ فما بيوتهم عورة، وما هم محتاجون للاستئذان، وما بهم خوف على محارمهم وعوراتهم، ولكنه الفرار الذي يتذرعون إليه بالكذب.

وفي المشهد الثالث وصف لدواخل تلك النفوس؛ فهؤلاء المنافقون معدودون من أهل الإيمان ظاهراً، ولكن واقع أمرهم أنّ عقيدتهم واهنة ليست بصادقة، فهم يُظهرون الإيمان، وتعمل في دواخلهم عقيدة الكفر والشك؛ ولذا لو حصل لأهل الإيمان هزيمة، ودخلت جنود الشرك المدينة؛ لكانوا أسرع الناس إلى الردّة المعبر عنها بالفتنة، غير متلبّثين ولا متردّدين إلا قليلاً من الوقت، أو إلا قليلاً منهم يتلبّثون شيئاً ما قبل أن يستجيبوا ويرتدّوا، ثم يقدمون على هذه الفعلة الشنيعة: ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ [الأحزاب: ١٤].

وفي المشهد الرابع تذكير بتاريخ هذه الفئة؛ فهؤلاء قوم لم تزل أقدامهم راسخة في النكول والنقض؛ فقد كان منهم في أحد ما كان؛ حيث رجعوا بثلاث الجيش عن رسول الله ﷺ، فلما أدركوا قبح فعلهم، وخافوا على أنفسهم؛ احتموا بعهود ومواثيق أنهم لن يعودوا لمثل تلك الأفعال، وسيكونون عوناً للمؤمنين على أعدائهم؛ فلما وقف الأعداء بالباب، نكثوا عهودهم ومواثيقهم، وعادوا لسوء صنعهم: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب: ١٥].

وفي المشهد الخامس تكثيف الحديث عن المعنى التربوي الذي يستفيده المسلم من موقف هذه الفئة: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٦]. الموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه، بل وفي مواعده، لا يستقدم ولا يستأخر. ومن الوهم الذي يمارسه من تغيب عنه هذه الحقيقة، أن يظنّ أنه حين يتعد عن الثبات في موقف يجب عليه الثبات فيه، أنّ ذلك ينجيه من الموت، أو يقربه من السلامة؛ فما شأن المؤمن هكذا، ولكن شأنه الاستسلام لأمر الله، والطاعة له ولسوله، والوفاء بالعهد مع الله في السراء والضراء،

وسيكون الموت أو القتل في ساعة التي كُتِبَ فيها في اللوح المحفوظ. إنَّ الأمور بيد الله يجريها وَفُق الحكمة الربانية، ولا قوَّة أعظم من قوَّة الله، ولا مهرب ولا ملجأ من الله إلا إليه، فلتستقرَّ القلوب على الإيمان به، والتوكُّل عليه: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

والمشهد السادس في تعاملهم مع مَنْ لم يخرج بعدُ إلى موطن المعركة، ولكنه يحدِّث نفسه بالخروج؛ فهم يعوِّقونه عن الخروج بالتخويف والتوهين، وأمَّا مَنْ خرج فإنهم يستدرجونه ليعود، وذلك شأنهم الدائم؛ فهم لا يثبتون في مواقف الدفاع، ولا يشاركون في الحروب ولا يدعون أحدًا يشارك إلا اعتراضه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨].

وفي المشهد السابع وصف لدواخل تلك النفوس التي جبلت على الشُّحِّ والبخل بكل صورته؛ فهم شحيحون بأنفسهم فلا يشاركون في قتال، شحيحون بأموالهم فلا يشاركون في نفقة، بل شحيحون حتى بمشاعرهم؛ فإذا حمى الوطيس، واشتدَّ الخوف؛ انخلعت قلوبهم من أجوافهم، واستدارت أعينهم شأن الذي غشيه الموت؛ كأنهم يستدرُّون بهذا عطف أهل الإيمان. أما إذا ذهب الخوف وزالت الكربة، فتلك نفوس لقيمة أشدَّ ما تتصوِّره من اللوم؛ فلهم ألسنة كالحديد يقرُّون بها أعراض المسلمين، ويقطعون بها لحومهم، ويهتكون بها ستورهم. فهم شحيحون بكل خير، ولا غرو؛ فإنهم ليسوا من الإيمان في نكير ولا قطمير: ﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ

سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ  
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ [الأحزاب: ١٩].

ألا يتعلم المؤمن أن يكون كريماً لا شحيحاً؛ كريماً بنفسه يبذلها لله نصرةً وجهاداً  
وحضوراً في كل ميدان يحبّه الله، كريماً بماله يبذله في مرضي الله من جهادٍ وبذلٍ  
للمعروف، ورعاية لفقير أو مسكين، كريماً بمشاعره وأحاسيسه، يألم لما يألم له إخوانه،  
ويأسى لما يأسون، ويفرح لما يفرحون، كريماً في كل موطن ليظفر بكرم الله، لا شحيحاً  
فيعاقب بخذلان الله.

وفي المشهد الثامن وصف لحالهم بعد أن زالت هذه الغمة وانكشفت تلك  
الملمة: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَو أَنَّهُمْ بَادُونَ  
فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿ [الأحزاب: ٢٠].

هُم قَوْمٌ ذَهَبَ الْمَلْعُ بِهِمْ كُلِّ مَذْهَبٍ، حتى بعد أن انقمع الأحزاب عن المدينة،  
وقفلوا راجعين خائبين، لم يصدّقوا بعد أنهم ذهبوا، فهم ما يزالون يرتعشون ويتخاذلون،  
فإن قاوموا هذا الخوف، فهم يودّون من كلّ أفئدتهم ألا يكونوا في المدينة إن جاء  
الأحزاب مرة أخرى، بل يكونون في البوادي والصحاري، يتلقطون الأخبار عن محمّدٍ  
ﷺ وصحبه، لعلهم يشتفون بخير تبرد به أفئدتهم الحرى على المؤمنين، على أنهم لو  
كانوا فيكم وجاء الأحزاب مرة أخرى لن يقاتلوا إلا قليلاً، وربما كان ذلك القليل  
ليخادعوا المسلمين أنهم منهم، أو ربما كان ذلك القليل في الدفاع عن ذواتهم إذا مسّهم  
الأذى المباشر.

على كلِّ، هذه صورة ترسم الجبن والخوف في أجلى تجلياته، وتكشف عن نفوس المنافقين في المجتمع المسلم. وإذا كانت هذه النفوس بهذه الدرجة المليئة بالخوف والجبن، فحريّ بأهل الإيمان ألاَّ يُعَدُّوهم نصيراً، ولا يعتبروهم ظهيراً؛ فتبّاً لهم وتعساً فليسوا ممن يُبالي، بل هم إلى الضُّرِّ أقرب، وبالخذلان أحقّ وأولى، إنّما ينتصر الحقّ بالمؤمنين الصّادقين، وسيأتيك خيرهم بعد حين.

### أما المقطع الثالث :

فعن رأس هذه الأُمَّة ومُقدِّمها (رسول الله ﷺ) قائدها إلى كل خير، ودليها على كل فضيلة، وأولها إلى كل معروف وإحسان؛ أشجعها قلباً، وأثبتها موقفاً، وأعظمها يقيناً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ربما كان سبب الاختصار في هذا المقطع، أنّه ﷺ كان صفحة مكشوفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها؛ فهم لا يحتاجون أن يحدثوا بتفاصيل عن نفسه؛ فنفسه كفعله، وفعله كنفسه، وإنما يحتاجون إلى حثِّ وتأكيده؛ لاتخاذهِ أُسوة يتأسون بها، وقدوه يتبعونها.

هو ﷺ أُسوة لأصحابه في المساواة؛ ها هو يشاركهم العمل؛ يحفر كما يحفرون، وينقل التراب كما ينقلون، يضرب بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكتل، حتى يغطي التراب بطنه الشريف من كثرته<sup>(١)</sup>، ويردّد معهم الأهازيج:

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٤، ٤١٠٤، ٤١٠٦) من حديث البراء ؓ.

"اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ \* فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ"<sup>(١)</sup>  
 اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا \* وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
 فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا \* وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِينَا  
 إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا \* إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أُبَيْنَا"<sup>(٢)</sup>

كم هي السعادة، وكم هو اليقين الذي يعمر قلوبًا ترى قائدها ينخرط في عملٍ يأمرها به؛ لا يُجسِّن صناعة التمثيل، ولا يستنكف عن المشاركة في العمل.

هو أسوة صلوات الله وسلامه عليه في الثقة بالله، واليقين بموعوده؛ يضرب الصخر فيريه الله العلامة المفرحة لأُمَّتِهِ؛ فيكبر بأعلى صوته تكبير الفتح، ويقول لهم: أبشروا. ولقد امتلأت سيرته صلوات الله وسلامه عليه بهذه الثقة في الله في أشدِّ الحالات حلقة واسودادًا، وهكذا شأن المؤمن، لا تزيده الشدائد إلا ثقة بربه، فهو يعرف أنّ تلك الشدائد تغسل منه أوضارًا، تحول بينه وبين أن يكون نفسًا نقيّة تستحق النصر.

هو أسوة صلوات الله وسلامه عليه حينما يغرس في أُمَّتِهِ مبدأ الاستشارة؛ فلا يقطع أمرًا دونهم؛ بل ينزل على رغبتهم وما يشيرون به، لا يتعدّر عن ذلك بدعوى أنّه نبي، ولا يستنكف عن ذلك برؤية أنّه أكثر خيرة، وأحد حُنكّة، وأبصر بمواقع الأمور. ومن ذلك ما كان منه ﷺ من شأن حفر الخندق<sup>(٣)</sup> وكان الذي أشار بذلك

(١) صحيح البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم ١٢٨ - (١٨٠٥) من حديث أنس ﷺ.

(٢) صحيح البخاري (٢٨٣٧)، ٣٠٣٤، ٤١٠٤، ٤١٠٦، ٦٦٢٠، ومسلم ١٢٥ (١٨٠٣) من حديث البراء.

(٣) ولأهمية حفر الخندق سُمّيت غزوة الأحزاب به، ويؤبى البخاري في كتاب المغازي: "باب غزوة الخندق وهي الأحزاب"، ثم أخرج (٤١٠٦) حديث البراء بن عازب، قال: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ، وَخَنَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تَرَابِ الْخَنْدَقِ...".

سلمان الفارسيؓ فيما ذكر أصحاب المغازي<sup>(١)</sup>، وعدوله ﷺ عن الصلح مع غطفان بعد استشارة سيدي الأنصار.<sup>(٢)</sup>

وهو أسوة صلوات الله وسلامه عليه في قوة الاتصال بربه؛ فقد كانت ليالي الخندق معمورة بالصلاة والدعاء كما دلّ عليه خير حذيفةؓ<sup>(٣)</sup>، كثير الشكر لربه على ما يصرفه عنه من كيد أعدائه؛ فكان ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة، يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده".<sup>(٤)</sup> والأحزاب هنا في المشهور هي الطوائف التي تحزبت عليه ﷺ<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢)، الروض الأنف (٣٠٦/٦)، السيرة النبوية لابن حبان ط. مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ (٢٥٥/١)، فتح الباري (٣٩٢/٧ - ٣٩٣).

(٢) روى ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام ٢٢٣/٢) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣٠/٣) أنّ النبي ﷺ لما اشتدّ البلاء، استشار سعد بن معاذ وسعد بن عباد في عبادة في الصلح مع غطفان، فمّا قال لهما: "والله ما أصنع ذلك إلا أرى رأي العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم". ورواه الطبراني في المعجم الكبير ت: حمدي عبد المجيد السلفي (٢٨٨-٢٩٠/٦) من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، بنحوه، قال الهيثمي في الجمع (١٣٣/٦): "فيه: محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات".

(٣) وفيه: "لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هويًا...". أخرجه أحمد (٢٣٣٣٤) والطبري في تفسيره (٢٦/١٩). و(الهوي): بالفتح: الحين الطويل من الزمان. وقيل: هو مختص بالليل. النهاية (٢٨٥/٥).

(٤) صحيح البخاري (١٧٩٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) انظر: البداية والنهاية (٦٧/٦ - ٦٨)، فتح الباري (١٩٠/١١).

وهو أسوة ﷺ لأصحابه في الرحمة والشفقة، فحين رأى جابر ﷺ مخايل الجوع على وجهه ﷺ عاد إلى امرأته لتصنع طعاماً للرسول ﷺ، فما وجدت غير طعام قليل يكفي للنبي ﷺ ونفر قليل، فأتاه جابر يخبره بما صنعت زوجته له من الطعام، فيصيح ﷺ في الناس: تعالوا إلى طعام جابر. نعم إنه طعام صنع له وحده، فإن يكن معه أحد فليكن نفرًا قليلًا؛ لكن ما كانت تلك النفس الرحيمة تستطيع أن تضع لقمة في فيها وأصحابه يعانون من الجوع ما يعانون.. أتى للنفوس الشريفة أن تستسلم للاستئثار فتعود من نفس أمة إلى نفس رجل واحد. وقد أكرم الله صاحب الكرم بالبركة في ذلك الطعام القليل، فأكلوا وشبعوا، وتركوا لأهل البيت ما يزيد عن حاجتهم، بل يقسمونه على الناس.<sup>(١)</sup> والمواساة أصل في ديننا، حُطَّة شرعها لنا النبي ﷺ بفعله

(١) أخرج البخاري (٤١٠٢) ومسلم ١٤١ - (٢٠٣٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: لَمَّا خَفِرَ الْخُنْدُقُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَمَصًا، فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ لَهَا: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ لِي جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِرٌ، قَالَ: فَذَبَحْتُهَا وَطَخَنْتُ، فَفَرَعْتُ إِلَى فِرَاعِي، فَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضُخْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَمَسَارَتْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَدْ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَخَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ فِي نَفْرِ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْخُنْدُقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُورًا فَحَيِّ هَلَا بِكُمْ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُنَزِّلَنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تُخْرِزَنَّ عَجِينَتَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ»، فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَدِّمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ لِي، فَأَخْرَجَتْ لِي عَجِينَتَنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعِي خَابِرَةَ فَلْتُخَبِرْ مَعَكَ، وَأَفْدِحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنَزِّلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَكُلُوا حَتَّى تَرَكُوها وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغُطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَتَنَا لَيُخَبِرُكُمَا هُوَ.

و(السُّور) بضم السين وإسكان الواو غير مهموز، لفظة فارسية، معناها: الوليمة والطعام الذي يُدعى إليه. انظر: جامع الأصول ت: عبد القادر الأرناؤوط (٣٥٥/١١)، النهاية ت: الزاوي، الطناحي (٤٢٠/٢)، شرح مسلم للنووي ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٤٧هـ (١٣/ ٢١٦).

وقوله، بل قد تفرض المواساة إجراءات تديرية تسلب الفرد بعض الحرية في حقوقه لما  
تبتغيه من تحقيق معنى الأخوة في الواقع؛ كما في نهيهِ ﷺ عن ادّخار لحوم الأضاحي  
فوق ثلاث من أجل الفقراء الذين نزلوا بالمدينة<sup>(١)</sup>.

وهو أسوة صلوات الله وسلامه عليه في تدبير أمر الحرب؛ يحسن سياستها،  
ويعدّها لها عدتها، فاختار موقع المعركة، ووضع التدابير الوقائية من كيد العدو، ونظم  
جندة في موقع حريز؛ فظهروهم محميةً بالجبل، ووجههم محميةً بالخندق، وهم لا  
يهدؤون ليلاً ولا نهاراً؛ يحرسون الموقع ويكافحون الأحزاب حتى لا يصيبوا غرةً بل إنه  
يبعث من يكشف له عن حال عدوه طلباً لتوافق التدبير مع الكيد من العدو  
والتخطيط.<sup>(٢)</sup> على أنه ومع صلابته وقوته وإعداده للأمر عدته، لا يمتنع من أن يبحث  
عن منفذ ينفس به عن أصحابه، ويدراً به عنهم خطر الحرب؛ فالجرب في تعليماته  
ﷺ ليست هدفاً في ذاتها، بل هي مكروهة جدّ مكروهة، إلا في حالة الاضطرار،  
وخاصةً إذا كان في العدو قوة ظاهرة، وأعظم ما يكون في رد قوة العدو إيجاد الفرقة  
في صفّه، وغرز الشكّ بين فئاته؛ إن بالرغبة وإن بالرغبة؛ وكلاهما استعمله ﷺ في هذه  
الغزوة؛ أمّا الرغبة فتلك التي سلكها مع غطفان حين راوضهم على أن يأخذوا ثلث

---

(١) روى مسلم ٢٨ - (١٩٧١) من حديث عبد الله بن واقد، قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الضحايا  
بعده ثلاث»، قال عبد الله بن أبي بكر: فذكرت ذلك لعمرة، فقالت: صدق، سمعت عائشة، تقول: ذف أهل أبيات  
من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ادّخروا ثلاثاً، ثم تصدّقوا بما بقي»، فلما  
كان بعد ذلك، قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم، ويحتملون منها الودك، فقال رسول الله  
ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: نهيت أن نؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي ذفت،  
فكلوا وادّخروا وصدقوا». وروى البخاري (٥٥٦٩)

(٢) من ذلك ما كان منه ﷺ من بعث العيون والطلايع لكشف خبر العدو؛ كما في بعث الرّبير عند البخاري  
(٣٧٢٠)، وبعث حذيفة ؓ عند مسلم ٩٩ - (١٧٨٨).

- وفي بعض الروايات: النصف - ثمار المدينة تلك السنة، على أن يعودوا إلى ديارهم، ويتركوا قريشًا وما أرادوا. ولقد سال لعاب غطفان لهذا الإغراء، وأبدوا الموافقة عليه، بل إن بعض الروايات جاء فيها أنه قد كتب الكتاب، ولكنه كتاب مراوضة لم يُشهد عليه، ولم يُعزم عليه العزيمة التامة؛ انتظارًا منه ﷺ لرأي أصحابه، وقد كادت تتم الخُطَّة لولا إباء السَّعديين - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - لها، فإنهما لم يستمرتا أن يكون للأعراب الذين كانوا لا يفرحون بشيء من ثمار المدينة إلا بِشْرَى أو قِرَى أن يحصلوا على ما يبتغون بغير ذلك؛ على أن هذه الخُطَّة - لو تمت - تحمل في طياتها قَدْرًا من الاستسلام والذل لمن أعزَّهم الله بالإسلام ورفع عنهم ذل الجاهلية، فكيف يحصل لغطفان في وقت عزة الأنصار ما لم يحصل لهم في وقت شركهم، وإنما الإسلام يزيد أهله ولا ينقصهم<sup>(١)</sup>.

(١) أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٨/٦) من طريق مُحَمَّدِ بْنِ عَدْرِو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ الْحَارِثُ الْعُظْفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، شَاطِرُنَا تَمَّرَ الْمَدِينَةَ، قَالَ: "حَتَّى أَسْتَأْمَرَ السُّعُودَ"، فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ، وَسَعْدِ بْنِ عَبَّادَةَ، وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَسَعْدِ بْنِ حَيْثَمَةَ، وَسَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَجَعَهُمُ اللَّهُ، فَقَالَ: "إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمَّرَ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْحِي مِنَ السَّمَاءِ، فَالتَّسْلِيمَ لِأَمْرِ اللَّهِ، أَوْ عَنْ رَأْيِكَ، أَوْ هَوَاكَ، فَرَأَيْنَا تَبِعَ هَوَاكَ وَرَأْيِكَ، فَإِنْ كُنْتَ إِتْمًا تُرِيدُ الْإِنْفَاءَ عَلَيْنَا، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمَّرَةً إِلَّا بِشْرَى، أَوْ قِرَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣/٦) "فيه محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات". وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٩٧١) من طريق أبي معشر، قال: "جاء الحارث بن عوف، وعيينة بن حصن، فقالا لرسول الله ﷺ عام الخندق: نكف عنك غطفان، على أن تعطينا ثمار المدينة، قال: فراوحوه حتى استقام الأمر على نصف ثمار المدينة....". وفي سيرة ابن هشام (٢٢٣/٢) أن النبي ﷺ أعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان، ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معها عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك.... إلخ. وانظر: الروض الأنف (٢٧١/٦).

وأما الرهبة، فكانت في تلك الخطة العجيبة التي دبرها نعيم بن مسعود بإشارة منه ﷺ بتفريق صف الأحزاب وقريضة الناكثة في قصة يكبر فيها المرء دهاء نعيم، ولقد أفلحت تلك الخطة، فزرعت الشك بين الفريقين، وفتت الصقن بإذن الله<sup>(١)</sup>.

وهو أسوة صلوات الله وسلامه عليه في معاملة الكاشحين بالعداوة، الناقضين للعهد من اليهود الآتي ذكرهم؛ فهو صلوات الله وسلامه عليه رحيم جد رحيم، لكن

(١) قال ابن إسحاق: حدثني رجل عن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، ولم يعلم بي أحد من قومي، فمرني أمرك، فقال له رسول الله ﷺ: "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت؛ فإنما الحرب خدعة"، فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، فقال لهم: يا معشر قريظة! - وكان لهم نديماً في الجاهلية - إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك، فقالوا: صدقت، فقال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد لبلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم، وإن قريشاً وغطفان بلادهم غيرها، وإنما جاءوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، وخلوا بينكم وبين الرجل، فلا طاقة لكم به، وإن هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوهم، حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، تستوثقون به منهم أن لا يرحوا حتى يناجزوا محمداً، فقالوا له: لقد أشرت برأي ونصح. ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشراف قريش فقال: يا معشر قريش! إنكم قد عرفتم وذوي إياكم، ورفاقي محمداً ودينه، وإني قد جئتكم بنصيحة، فاكموا عليّ، فقالوا: نفع، ما أنت عندنا بمنهم، فقال: تعلمون أن بني قريظة من يهود، قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد. فبعثوا إليه ألا يرضيك عنا أن نأخذ لك من القوم رهناً من أشرافهم، وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم، حتى نخرجهم من بلادك؟ فقال: بلى! فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرًا من رجالكم، فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا. ثم جاء غطفان، فقال: يا معشر غطفان! قد علمتم أني رجل منكم: قالوا: صدقت. فقال لهم كما قال لهذا الحي من قريش، فلما أصبح أبو سفيان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ، بعث إليهم أبو سفيان بن حرب عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش، إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود! إن الكراع والخف قد هلكا، وإننا لسان بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد نناجزه، فبعثوا إليه: إن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمداً، فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إننا لا نعطيكم رجلاً واحداً، فإن شئتم أن تخرجوا، فتقاتلون وإن شئتم فاقعدوا، فقالت يهود: هذا والله الذي قال نعيم، والله ما أراد القوم ألا يقاتلوا معهم، فإن أصابوا فرصة، انتهزوها، وإلا مضوا فذهبوا إلى بلادهم، وخلوا بيننا وبين الرجل فبعثوا إليهم، إنا والله لا نقاتل معكم، حتى تعطونا رهناً، فأبى أن يفعل؛ فبعث الله الريح على أبي سفيان وأصحابه وغطفان وجنوده التي بعث، فخذلهم الله. دلائل النبوة للبيهقي (٤٤٥/٣)، سيرة ابن هشام (٢٢٩/٢ - ٢٣١).

حين يصل الحال إلى موقف تستأصل فيه بيضة الإسلام، ويستباح فيه حماه، فلا هوادة حينئذ، ولتنل كل نفس عقوبة جنايتها، فسيان في ميزان الدين والعقل من حيث سوء التدبير أن توضع العقوبة في مواطن الرحمة أو توضع الرحمة في مواطن العقوبة.

#### المقطع الرابع:

في وصف حال أهل الإيمان: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ - ٢٣].

أولئك الذين أنزل الله لهم قبل عام سنّته في أولياته وكيف يتعهدهم بالتربية والرعاية من خلال ما يسوقه إليهم من الأحداث ليصفي تلك النفوس ويستخرج منها ما ليس لله، وليمحص صفوفها لتنفي المتعلقين الطامعين والهزالي الخوارين الذين لا يستقيمون على المبادئ إلا بمقدار ما تحقق لهم من نفع أو تدفع عنهم من مكروه، ذاك الوعد هو ما جاء في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَإِلَّا إِنْ نَصَرَ اللَّهُ فَمَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لقد وعت هذه القلوب المؤمنة ذلك الدرس جيّداً، فهاهم يُزلزلون، وتأتيهم الأحزاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، إذا فنصر الله قريب، وفرجه سريع، ووعدده حق لا مرية فيه. ولا تنافي بين ما تقرره هذه الآية، وما سبق في وصف الكرب والخوف؛ فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ "ناساً من البشر؛ لا يملكون أن يتخلصوا

من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزا حدود جنسهم البشري، ويفقدوا خصائصه ومميزاته. خلقهم الله ليقوا بشرًا، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرًا، كانوا ناسا من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، لكنهم كانوا مع هذا مرتبطين بالعورة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط، وتحدد فيهم الأمل وتحرسهم من القنوط".<sup>(١)</sup>

**والدرس الإيماني الذي ينبغي أن نستفيد منه، أننا إن ضعفنا مرة، وزلزلنا مرّات، وتفوّق علينا أعداؤنا بالعُدّة، أو فاقونا بالتدبير، أو أحكموا علينا الخطة؛ فعلينا أن لا نفقد الثقة في ربنا وديننا وأنفسنا، ونعتقد أننا لم نعد نصلح لشيء أبدًا؛ علينا أن نعود لربنا؛ نستمسك بديننا، وندافع عن عقيدتنا في غير توانٍ ولا كسل، وسيحقّق الله لنا ما وعدنا؛ فإنّ وعده حق وصدق.**

هذه الكُرب التي تنزل بأهل الإيمان، يسوقها الله ﷻ لحكم عظيمة، لا ينجح فيها إلا الصادقون، فيصطفى الله من عباده أقوامًا يرفعهم إليه، ويكرمهم لديه، ويدّخر أقوامًا ليقودوا سفينة الإسلام إلى مواطن أخرى، وبيئات أخرى، ونجاحات أخرى. ومن ذهب إلى الله وهو بهذه النية فهو صادق، ومن أبقاه الله وهو بهذه النية فهو صادق. الذين ذهبوا في معركة الخندق لا يصلون إلى عشرة في أكثر التقادير؛ ذهبوا إلى ربه وهم صادقون، والذي بقوا يشدّون عضد النبي ﷺ صادقون..

وختام من ارتقى إلى ربه من الصادقين في هذه الغزوة؛ سعد بن معاذ بعد أن دعا ربه هذا الدعاء الخفيّ: "اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، مِنْ قَوْمٍ كَذَبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ

(١) الظلال (٥/٢٨٤٤).

الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْتَنِي لَهُ حَتَّى أَجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَأَفْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا". فَأَنْفَجَرَتْ مِنْ لَبْتِهِ .. فَإِذَا سَعَدٌ يَغْدُو جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ مِنْهَا ﷺ. (١)

ومن أعظم ما يترقى المؤمن عليه، البصر بحكمة الله في تديير الأحوال؛ فما كان من شيء من الأمور إلا وفيه حكمة التدبير من الحق جلا جلاله؛ فما وقع في الخندق وغيره إنما هو وفق هذه الحكمة: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤].  
وجزاء الصادقين ليس بالنصر فقط، بل من استشهد فقد جوزي بصدقه، ومن بقى وأظهره الله على الكافر فقد جوزي بصدقه. وأما المنافقون؛ فالأحداث تظهر ما خفي من أحوالهم، فيبقى بعضهم على غشه ودغله؛ فيعذبه الله، ويريد الله لقلوب بعضهم الخير فتهتدي، وترتك التردد والشك والريب، فيكرمها بصدق الإيمان والتقوى.

#### المقطع الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝٥٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٥٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

(١) صحيح البخاري (٤١٢٢). و(يغذو): يعني: يسيل دمًا. انظر: جامع الأصول (٨/ ٢٧٥).

فيصف ختام هذه المعركة في جانبها الخارجي الذي أشار إليهم بوصف: ﴿مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ والداخلي الذي أشار إليهم بوصف: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، هاهي قريش وأتباعها، وغطفان وأتباعها، تجر أذيال الهزيمة، يعودون بأشد الخسار، وبأشد ما يعالجون من الغيظ؛ فلا جمعهم أفلحت، ولا خططهم نجحت، ماذا بقي معهم وقد خسروا معركة جمعوا فيها كل طاقاتهم من ساحل البحر الأحمر إلى أعالي نجد، وتواصلوا مع اليهود في شمال الجزيرة، وتخللوا المجتمع الإسلامي، فأغروا اليهود بالنكث والغدر؛ إنها الخسارة التي ليست بعدها خسارة، بل النهاية التي ليست بعدها نهاية، وهنا يقرأ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه المستقبل بحسّ السياسي الخبير، والقائد الملهم: "الآن نَغزُوهُمْ وَلَا يَغزُونَنَا".<sup>(١)</sup> وقد كان الحال كما قدر ﷺ، فلم تقم لتلك القبائل قائمة بعد ذلك اليوم سوى حركات ضعيفة هي أشبه بحركات الذبيح منها بإقدام المعافي. لكن هذا الانتصار يجب أن يبقى في حسّ المؤمن مقروناً بتوفيق الله وتدييره؛ ولهذا ينسب الحق سبحانه النصر له والرد لهم منه، وامتن على المؤمنين بأن حَقَّق لهم ذلك دون أن ينزلوا ساحة المعركة، أو يتقاتلوا مع أولئك الأقوام: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

ولا عجب فهو سبحانه القويّ العزيز، ردّ أولئك، وحفظ هؤلاء، وكفاهم الشرور بقوته وعزته، وهكذا يذكرهم سبحانه بكرمه ومنته في أول آيات الغزوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ

(١) رواه البخاري (٤١٠٩ ، ٤١١٠) من حديث سليمان بن صرد ؓ.

تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٩]، وآخرها: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ...﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأما يهود بني قريظة الذين نكثوا العهد وخفروا الذمة ووقفوا مع الأحزاب في حربهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ فقد أذهم الله وأخزاهم وانقلب مكرهم عليهم.

وما ينقم هؤلاء من المؤمنين، وهم لم يروا منهم إلا البر والإحسان باعتراف زعيمهم كعب بن أسد الذي تردّد في أول أمره أن يستجيب لإغراءات حيي بن أخطب بالنكث والنقض، مدفوعاً إلى ذلك التردّد بشيعين: الأول: أنه لا مبرّر لهذا النكث، فهم لم يروا في جوار رسول الله ﷺ إلا الخير، ومن ناحية أخرى، لا يدرى ما تصير الأمور إليه؛ أتى حيي بن أخطب النضري كعب بن أسد القرظي، فلما سمع كعب بن أخطب يغيب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي، قال: ويحك يا حيي: إنك امرؤ مشنوم، وإني قد عاهدت محمّداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً... فلم يزل كعب يفتله في الذروة والغارب<sup>(١)</sup>، حتى لآن له، وقال: ارجع عني يومك هذا حتى أشاور رؤساء اليهود. فقال: قد جعلوا العهد والعقد إليك فأنت ترى لهم. وجعل يلح عليه حتى فتلته عن رأيه.. فنقض كعب العهد الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ...<sup>(٢)</sup>

لقد كانت جريمة كبرى بكل ما تعنيه تلك الجريمة، فهي خيانة لله وللرسول ولجماعة المؤمنين، وهي تأمر مع العدو الخارجي على من كان يستحق الوفاء؛ عهداً

(١) لم يزل يفتل في الذروة والغارب: هذا مثل، وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك؛ فضرب هذا الكلام مثلاً في المفاوضة والمخاتلة. الروض الأنف (٦/٣١١).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٤٥٦)، سيرة ابن هشام (٢/٢٢١).

وحُلُقًا وجوارًا، لكن هذا هو مسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديماً وحديثاً؛ فالقوم لا يراعون المواثيق؛ فكما لا تدع الأفعى لدغها لا يدع اليهودي نكته، حتى انسلخوا من طبقة الإنسانية إلى خلق آخر أبلغ وصف له ما قاله الحق سبحانه:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦]،

كانت عقوبة الله لهم أن وفق سعدًا ليحكم فيهم بذلك الحكم الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه حُكْمُ اللَّهِ، وهو كذلك كما تدلّ عليه هذه الآيات التي نزلت بعد حكم سعد:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٦٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

وَأَرْضًا لَمْ تَطَّعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] أنزلهم الله من حصونهم، وملاً قلوبهم رعباً، وسلط عليهم المؤمنين؛ يقتلون من بلغ، ويأسرون من لم يبلغ، ويرثون أرضهم وديارهم.

وإن أعظم درس يتعلمه أهل الإيمان، أن الغدر والنكث لا يعود بالضرر إلا على أهله، فهو ثمرة، وخزي دائم، وهلاك ماحق.

ما بين نكثهم وذلمهم إلا وقت قصير ليس بشيء في حساب الزمان، انتقلوا به من

جوار الوفاء والرحمة إلى ذلّ القتل والأسر، واللعنة الدائمة إلى يوم الدين.

لقد كان لقريظة عبرة في إخوانهم بني قينقاع يوم فعلوا ما نقضوا به العهد بعد

معركة بدر، فأجلاهم رسول الله ﷺ، فإن لم يكن لهم في ذلك عبرة، فليكن لهم من

إخوانهم بني النضير الذي أجلاهم رسول الله ﷺ بعد أخذ، ولكن اليهودي رجل لا

يعرف الوفاء مهما غومل بالوفاء، ولا يعرف الرحمة مهما أسبغت عليه من الرحمة، ولا

يراعي العهد وإن احتملت ما احتملت في سبيل الوفاء له بالعهد؛ فهل يتعلم أبناء الأمة اليوم من درس الأمس، وهل يستيقنون المنهج الحق في التعامل مع اليهود؟! وربّ ضارّة نافعة؛ فإن الله جعل هذا الحدث سبباً لاجتثاث آخر جرثومة يهودية من المدينة بأسوأ عاقبة، وأقبح منتهى.

على أنّ من دروس هذا الحدث أنّ يكون المؤمن وقافاً عند حدود الله؛ فهؤلاء القوم حلفاء للأوس وسيدهم سعد بن معاذ وقد بذل جهده ألا يستجيبوا لمكر حبي بن أخطب، وأنّ يستمروا على الوفاء، وأنّ يخشوا عواقب الأمور، ولكنهم ردّوا عليه بأقبح ردّ يستحيي الأمر من ذكره؛ سعد هذا كان مثلاً للمؤمن الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، لقد قالها صراحة: "قَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا يُبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لِائِمٍ"، فحكّم فيهم بما حكم.<sup>(١)</sup>

وبعد، فما هذه إلا شذرات من دروس إيمانية وتربوية، يمكن أن يستلهمها المرء وهو يقرأ غزوة الأحزاب في كتاب الله، أرجو أن تلقي ضوء على ثمرة معالجة الحدث من أحداث السيرة من خلال القرآن، وأن تساهم في إيضاح أن السيرة النبوية معين لا ينضب في استنباط دروس الإيمان، ومورد عذب في تثبيت دلائل التقوى في قلب المؤمن، ودليل هاد للمسلم وهو ينافح عن دينه عدوان المعتدين، وتسلط الظلمة القاهرين، وليعلم أن في كل عصر أحزاب فإن تكن الأحزاب فليكن أوس وخزرج، وليكن سلع وخندق، وقبل ذلك وبعده ليكن هناك إيمان راسخ وعطاء ممتد وعزيمة لا تلين وثقة في الله لا تهتز؛ فالذي نصر محمّداً وصحبه وعدّ بالنصر من اتّبعه وسار على نهجه؛ فاجعلنا اللهم منهم، ووفّق أمتنا لكلّ خير، وادراً عنها كل شر.

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢ / ٥١١)، صحيح ابن حبان (٧٠٢٨)، جوامع السيرة (ص ١٩٤).

## المثال الثاني

المعالجة القرآنية لمعنى تربوي قُرّر في مناسبات متعددة من أحداث السيرة

(توجيه المرثي إلى تقديم العناية بالراغبين في الهداية على الراغبين عنها)

من أمثلة المعالجة القرآنية لمعنى تربوي بالتنبيه إليه في مناسبات متعدّدة؛ متشابهة المعنى والصورة، متقاربة الظروف والملابسات؛ تلك الآيات التي أرشدت النبي ﷺ إلى العناية بالراغبين في الهداية، وتقديمهم على الراغبين عنها الذين لا يزالون يصدفون ويعاندون..

وفي ذلك من الآيات؛ قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ [عبس: ١ - ٣]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي جملة هذه الآيات توجيه العناية بالذين يجيئون طلباً للهداية، ورغبةً في التزكية، وحباً في الإيمان والإسلام.

وقد كانت دعوة النبي ﷺ في أولها مفرغ الضعفاء، وجنة الفقراء؛ ولم ير مع النبي ﷺ في بداية الإسلام إلا قلة من الأعبد وامرأتين وأبي بكر<sup>(١)</sup>؛ وكان النبي ﷺ يجالسهم، ويأنس بهم، ويأنسون به. وهو ﷺ حريص كل الحرص على هداية الناس جميعاً إلى الإسلام؛ غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم؛ حتى كاد أن يُذهب به هذا الحرص؛ كما في قوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَفْسِكَ<sup>(٢)</sup> إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَغَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وكان عظماء قريش يرون مع النبي ﷺ الضعفاء والأعبد والفقراء؛ فكانوا يمتنعون من الجلوس للاستماع إليه ﷺ فيما يدعوهم إليه استكباراً واستصغاراً لشأن أولئك المؤمنين؛ وكان ﷺ يرغب في إسلام هؤلاء؛ ليكونوا قدوة لقومهم، ولعلمه أن أصحابه يحرصون حرصه، ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش؛ لأنهم

(١) في صحيح البخاري (٣٦٦٠، ٣٨٥٧) عن عمار بن ياسر ؓ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةٌ أَعْبِدُ وَأَمْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ". والأعبد المذكورون، هم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، وياسر ووالد عمار، والمرأتان: خديجة، وسمية والدة عمار أو أم آمن. مقدّمة فتح الباري (٣٠٠/١) وانظر: الفتح (٢٤/٧).  
(٢) يعني: قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصلّقوك على ما جنتهم به. تفسير الطبري (٥٤٣/١٧).

آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسُّمعة، ولكنَّ الله نهاه عن ذلك في قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].<sup>(١)</sup> عن سعد بن أبي وقاص ﷺ في سبب نزول هذه الآية: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرُّونَ عَلَيْنَا - وفي رواية: تُدْبِي هَؤُلَاءِ؟! - قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُدَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.<sup>(٢)</sup>

(١) انظر: التحرير والتنوير، ط. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م (٧/ ٢٤٦).

(٢) صحيح مسلم ٤٥، ٤٦ - (٢٤١٣). وأما سعد بن أبي وقاص ﷺ، فكان من أول الناس سبقا إلى الإسلام، ففي صحيح البخاري (٣٧٢٧) أنه قال: "ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لَأُكَلِّمُ الْإِسْلَامَ". وفي هؤلاء الستة ممن سُمِّي سعد: بلال ﷺ وقد كان من الأعباد السابقين إلى الإسلام اشتراه أبو بكر وأعتقه، كما في صحيح البخاري (٣٧٥٤)، وكان ابن مسعود يرمي غنما لعقبة بن أبي معيط. رواه أحمد (٣٥٩٨)، (٧٠٦١). قال مجمع الزوائد (١٧/٦): "رجالهما رجال الصحيح". وعن ابن إسحاق أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن مخزوم، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء ممن أهدى الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمدٌ خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.. {الآيات [الأنعام: ٥٢ - ٥٤]}. سيرة ابن هشام (٣٩٢/١). وانظر: تفسير الطبري (٢٥٨/٩، ٢٣٨/١٥، ٢٤٠). وروي في ذلك عن خباب ﷺ حديثا مفصلا: خرجه ابن ماجه (٤١٢٧). وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠): "إسناده صحيح .. وأصله في صحيح مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص".

ومن المناسبات التي تكرر فيها التأكيد على هذا المعنى التربوي، ما جاء في

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۙ﴾ [عبس: ١ - ٣]، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في عبد الله بن أمّ مكتوم<sup>(١)</sup>، وفي سيرة ابن إسحاق: "كان رسول الله ﷺ جالسًا وعنده عتبة بن ربيعة، وابن أم مكتوم الأعمى، فقال: يا رسول الله علمني القرآن، فعبس رسول الله ﷺ في وجهه وصرفه عنه كراهية أن يزهد إقباله عليه عتبة في الإسلام، يقول: إنما يتبع هذا العميان والمساكين، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ عتبة ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۙ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۙ (٩)﴾ ابن أم مكتوم<sup>(٢)</sup>. وكان من آثار هذا العتاب بعد نزول هذه الآيات ما روي عن النبي ﷺ من إكرام ابن أمّ مكتوم<sup>(٣)</sup>، ثم تجلّى هذا

---

(١) قال ابن العربي في أحكام القرآن ت: محمد عبد القادر عطا (٣٦٢/٤): "لا خلاف أنها نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى". وانظر: تفسير ابن كثير (٨ / ٣١٩).

(٢) سيرة ابن إسحاق (ص ٢٣٠ - ٢٣١). وانظر: سيرة ابن هشام (١ / ٣٦٣ - ٣٦٤). وفي الموطأ رواية يحيى ت: عبد الباقي (٢٠٣/١) عَنْ هِشَامِ بْنِ غَزْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ قَالَ: أُنزِلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ اسْتَدْنِي، وَعِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرَضُ عَنْهُ، وَيُقْبَلُ عَلَى الْآخَرِ...

(٣) تفسير عبد الرزاق ت: د. محمود محمد عبده ١٤١٩ هـ (٣٤٩٣) من قول قتادة، وكذا في نسختين خطيتين لمسند أبي يعلى ت: حسين سليم أسد كما في حاشيته (٤٣١/٥). وعزاه ابن كثير في تفسيره (٨ / ٣١٩) والسيوطي في الدر المنثور (٨ / ٤١٦) إلى مسند أبي يعلى، من رواية أنس. وفي سير أعلام النبلاء (١ / ٣٦١): "وقد كان النبي ﷺ يحترمه".

الإكرام في استخلافه على المدينة يومَ بالناس<sup>(١)</sup>، واتخاذهُ مؤذِنًا<sup>(٢)</sup>، ثم صيرهُ ﷺ مع مصعب بن عمير إلى المدينة يُقرآن النَّاسَ القرآنَ<sup>(٣)</sup>، بل روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: أنها كانت تكرمه؛ فَنَقَطَ لَه الْأَثْرَجَ، وَتَطَعِمُهُ إِيَّاهُ بِالْعَسَلِ، فقال لها مسروق في ذلك؟ فَقَالَتْ: هَذَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومِ الَّذِي عَاتَبَ اللَّهُ فِيهِ نَبِيَّهُ ﷺ.<sup>(٤)</sup> وهكذا؛ يؤسِّس القرآن الكريم في المرثيِّ أولويَّةَ الإقبال على الذين أبدوا رغبة في الهداية والتزكية ولو كانوا ضعفة وفقراء ومساكين في أقوامهم، أكثر من أولئك الراغبين عن هذه المعاني الطيبة ولو كانوا أولي شوكة ومكانة.

## والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

(١) مسند أحمد (١٢٣٤٤)، سنن أبي داود (٥٩٥).

(٢) مع بلال بن رباح وسعد القرظ وأبي محذورة. سير أعلام النبلاء ط. الرسالة (١/٣٦٠). وفي البخاري (٦١٧) من حديث ابن عمر، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِلَالَ يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُنَادِيَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومِ».

(٣) صحيح البخاري (٤٩٤١).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ت: عبد العلي عبد الحميد حامد ١٤٢٣ هـ (١٠/٤٧٧).

## فهرس المصادر والمراجع

### علوم القرآن:

- أحكام القرآن، لابن العربي، ت: محمد عبد القادر عطا.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ط. دار الفكر ١٤٢٠هـ.
- التحرير والتنوير، ط. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ط. طيبة ١٤٢٠هـ.
- تفسير عبد الرزاق ت: د. محمود محمد عبده ١٤١٩هـ.
- جامع البيان للطبري، ط. دار هجر.
- في ظلال القرآن، ط. الشروق - القاهرة.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط. دار الفكر.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية .
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني ط. الحلبي.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت ١٤١٥هـ.

### علوم الحديث:

- صحيح البخاري، ط. دار طوق النجاة عن السلطانية مع ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
- صحيح مسلم، تحقيق وترقيم عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٤١٢هـ.

- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، ت: عبد القادر الأرناؤوط.
- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت.
- شرح مسلم، للنووي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٤٧هـ.
- شعب الإيمان، للبيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد ١٤٢٣هـ.
- مسند أبي يعلى، ت: حسين سليم أسد.
- مسند أحمد، ط. مؤسسة الرسالة.
- مجمع الزوائد، للهيثمي، ط. مكتبة القدسي.
- المعجم الكبير، للطبراني، ت: حمدي عبد المجيد السلفي.
- الموطأ لمالك رواية يحيى، صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت: الزاوي، الطناحي.

#### السِّيَر والتواريخ:

- البداية والنهاية، لابن كثير، ط. دار هجر.
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، دار صادر - بيروت.
- دلائل النبوة، للبيهقي ت: عبد المعطي قلعجي ١٤٠٥هـ.
- الروض الأنف، ت: عبد الرحمن الوكيل.
- زاد المعاد، لابن القيم، ط. مؤسسة الرسالة.
- جوامع السيرة، لابن حزم، ت: إحسان عباس.
- سبل الهدى والرشاد للصالحي، ت: عادل عبد الموجود، علي معوض.
- سير أعلام النبلاء، ط. مؤسسة الرسالة.

- سيرة ابن هشام، ط. مكتبة الحلبي.
- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، لابن حبان ط. مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ.
- السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٢٥هـ.
- السيرة النبوية في القرآن الكريم، د. عبد الصبور مرزوق، ط. الهيئة العامة المصرية للكتاب.
- الطبقات الكبير، لابن سعد ط. دار صادر.
- مغازي الواقدي، ت: مارسدن جونس ١٤٠٩هـ
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر.
- البلدان والجغرافيا:
- أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ط. دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق. ١٤٢٣هـ.
- الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، محمد غالي الشنقيطي، عني بطبعه ومراجعته عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر - بيروت، ١٣٩٧هـ.
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث البلادي، ط. دار مكة - مكة المكرمة ١٤٠٢هـ

